الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

١٧١٣ — ١٧٦٨

١ — سنوات الضياع والكسل : ١٧١٣ — ١٧٤٨

ولد ديدرو فى ٥ أكتوبر ١٧١٣ فى لانجرز فى شمبانيا ، على مسافة ٣٨ ميلا من ديجون . وكأن أبوه ديدييه ديدرو يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص فى صنع آلات الجراحة وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتى سنة خلت . ولم يرث دنيس عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم ، ولكنه لم يكف يوما عن أجلاله وحسن تقديره لا مانة أبيه الموسومة بالبساطة وأقباله على أعمال البر والخير فى هدوء . وينقل عنه دنيس قوله « أى بنى ، أى بنى أن العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسى إلى وسادة الدين والقوانين »[1] وهنا فى جملة وأحدة تردد الصوتان اللذان سيمعا فى فرنسا القرن الثامن عشر . — وكان له أخ أصبح كاهنا وخصما لدوداً لدنيس . وأخت دخلت الدير .

وكاد دنيس نفسه أن يكون كاهنا ، ذلك أنه منذ الثامنة حتى الخامسة عشرة من عمره التحق بمدرسة يسوعية فى لا نجرز وفى الثانية عشرة حلق شعر رأسه وارتدى غفارة سوداء (لباس الكاهن فى الكنيسة) وعاش حياة الزهد والتقشف ، وعقد العزم على أن يكون يسوعيا . وفسر هو هذا فيما بعد ، بأنه فيض من حماسته ، وأنه كان قد أخطأ « الحافز الأول لحنين جنسى ينمو بين جنبيه فخاله صوت الله »[2] . وأبتهج الوالد ديدييه لهذا النداء الباطنى الجديد لدى أبنه . ورأفقه مغتبطاً إلى باريس (١٧٢٩) ليلحق ، بكلية (لويس الأكبر) اليسوعية هناك ومنها حصل فى ١٧٣٢ على درجة الأستاذية . ولكن كما حدث فى حالات كثيرة كان اليسوعيون يفقدون راهبا مبتدئا بشحذ ذهنه وصقله . وأكتشف دنيس أن باريس عبارة عن

مواخير أكثر منها كنائس . فخلع غفارته وتخلى عن ورعه وتقواه ، وأنصرف إلى التدريب عند أحد المحامين . وسرعان ما نبذ القانون ، وقضى عشر سنين يتنقل من مهنة إلى مهنة . وعانى آلام الفقر فى حجرة فوق السطح ، ونفد صبر والده فمنع عنه النفقة ، ولـكن والدته كانت تمده ببعض المعونة خفية . وأقترض دنيس بعض النقود ، وكان أحيانا يسدد ما أقترض . وأعطى دروسا خاصة فى الرياضيات ، ودبج العظات للقساوسة ، وأشتغل كاتبا عند بائع كتب ، وفى نفس الوقت تابع دراسته فى الرياضيات واللاتينية واليونانية والانجليزية ، وألم الماما جيدا بالأيطالية . وكان متمرداً على القانون ولـكنه كان تواقا شديد التوق إلى المعرفة والحياة . لم يتعلم النظام والانضباط قط ، ولكنه تقريباً تعلم كل ما عداً ذلك .

وكان مفلسا خالى الوفاض ، ولـكنه ممتلىء حيوية وقوة ، ووقع فى شرك الغرام وأعتزم الزواج . وكانت انطوانيت شامبيون تكبره بثلاث سنين وثمانية أشهر ، ولكنها كان سيدة . وعنفته على شبابه المفاجىء ، ولـكنه أكد لها أن هذا مقدمة لحياة زوجية أمينة ، وأنه سيكون رفيق حياتها المخلص الأمين إلى الأبد . « أن خطابات غرامى الأخيرة موجهة اليك ، ولتعاقبنى السماء باعتبارى أشر الناس وأشدهم خيانة وغدرا إذا سطرت كتاب غرام إلى أحد غيرك »[٣] . ونقضت أرق خطاباته هذا العهد . واستسلمت والدة أنطوانيت لدموع أبنتها ولفصاحة الخطيب ولسانه الذرب ، ووافقت على الزواج شريطة الحصول على موافقة أبيه . وجمع ديدرو ما يكفى من المال لسداد نفقات العربة إلى لا نجرز على بعد ١٨٠ ميلا .

ووصل إلى لا نجرز ، وهناك تأثر والده بتجاوب طبع وصلت إلى أبنه لترجمته لتاريخ اليونان عن الأنجليزية . وعرض الوالد أن يقدم العون لأبنه فى أى عمل . وكان على دنيس أن يختار ، ولابد أن يقع أختيارة على شىء ما . فأعلن الشاب عن تلهفه على الزواج فعنفه أبوه بقسوة على أنه شاب عاق كسول سىء التدبير . ورد الأبن ردا وقحا ، وأقسم أن يتزوج سواء وأفق أبوه أم لم يوافق ، ودون أى عون مادى منه . وسجنه أبوه فى دير محلى ،

وهرب دنيس وسار على قدميه تسعين ميلا إلى تروى حتى أستقل عربة هناك . وعاد أدراجه إلى باريس .

ولكن مدام شامبيون كانت مصممة على ألا تتزوج أبنتها من رجل منفصل عن أبويه محروم من الميراث وكان ديدرو يقيم فى حجرة حقيرة لأيكاد يملك من حطام الدنيا شيئا ، وأنتابه مرض شديد فلما علمت أنطوانيت بذلك أسرعت إليه مصطحبة أمها معها قسرا ، وهناك أنهارت معارضة الأم. وسهرت مدام شامبيون وأبنتها على العناية بالفيلسوف المريض ، وفى ٦ نوفمبر ١٧٤٣ تزوجت « نانيت من نينو » (كما كان يسمى الواحد منهما الآخر) فى منتصف الليل فى كنيسة صغيرة أثرت بمثل هذه الزيجات السرية . وأبتهج الزوجان بانجاب طفلة بعد تسعة أشهر ، ولكنها لم تعمر لأكثر من ستة أسابيع . وولد لهما ثلاثة أطفال آخرين جاوز واحد منهم سن الطفولة . وأثبتت أنطوانيت أنها زوجة مخلصة ولكن رفيقة غير ملائمة عاجزة عن متابعة تحليقات أو شطحات زوجها الفكرية ، غير راضية فى شىء من المزاح ، عن دخله الضئيل من الترجمة . وعاد إلى مقاهى الفساد يعيش على القهوة ويلعب الشطرنج . وفى ١٧٤٦ كان قد إتخذ له عشيقة هى مدام بويسييه ، ومن أجلها كتب « الأفكار الفلسفية » « الحلى الزائفة » و « رسائل إلى العميان » .

وكان منذ وقت طويل قد أستسلم لفتنة الفلسفة التى تجتذبنا دائما ، لأنها لا تجيب أبدا عن الأسئلة التى لا نكف مطلقا عن القائها . ومثل بعض المفكرين لأحرار فى هذا القرن ، تأثر من هذه الناحية تأثرا عميقا بقراءة مونتانى وبيل ، ووجد فى كل صفحة تقريبا فى « المقال » وفى « القاموس » فكرة رائعة تلفت النظر . واجتذبة كثرة مراجع مونتانى وأشاراته إلى الروائع الوثنية إلى الأستزادة من دراسة الفلاسفة اليونان والرومان وبخاصة ديموقريطس ، وأبنيقوز ولوكريتس . وكان هو نفسه « الفليسوف الساخر » فى عصره ، فليسوفا ماديا يتدفق حيوية ونشاطا — ولم تتيسر له نفقات زيارة إنجلترا مثل فولتير ومونتسكيو ، ولكنه تعلم أن يقرأ الأنجليزية فى سهولة

ويسر . ولو ليستمتع بالشعراء والكتاب المسرحيين الانجليز . ولسوف نراه يتجاوب مع عواطف طومسون ويدافع ، مثل ليللو عن مأساة حياة الطبقة الوسطى . وتأثر بدعوة فرانسيس بيكون إلى قهر الطبيعة وطريق البحث العلمى المنظم ، وأنتقل إلى تمجيد التجربة أداة عظيمة للعقل . وأستمع فى سنى تكوينه وتشكيله هذه ، ومرة أخرى عند إعداد الموسوعة — إلى محاضرات فى البيولوجيا والفسيولوجيا والطب . وشهد طيلة سنوات ثلاث مؤتمرات رويل فى الكيمياء ودون ملاحظات فى ١٢٥٨ ورقة من القطع الكبير . ودرس التشريح والفيزياء ، وتمشى مع رياضيات زمانه ، وتابع الأبحاث من بيكون إلى هوبز ولوك والربوبيين الأنجليز . وفى ١٧٤٥ ترجم كتابا شافتسبرى « بحث فى الفضيلة والجدارة » وأضاف تأملات من عنده ، وأستمر طوال التقلبات يؤمن بأن الخير والحقيقة والجميل كلها مؤتلفة تقريباً ، وأن قانونا أخلاقيا مؤسساً على العقل ، لا على الدين ، يفيد النظام الاجتماعى بدرجة كافية .

وأصدر فى ١٧٤٦ ، مدفوعا بكل هذه الحوافر وبخياله الواسع الخصيب ، كتابه « أفكار فلسفية » دون أن يذكر أسم المؤلف . وكان متطرفا إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى لامترى ، بليغاً إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى فولتير . وربما كان لكليهما بعض الفضل فيه . وبدأ بدفاع عن « الانفعالات » وهنا حاول الفكر الجرىء ، متفقا فى ذلك مع صديقه روسو ، أن يبرهن على أنه لا ضير من « أن تقول الفلسفة كلمة فى صالح خصوم العقل ، مذ كانت الأنفعالات وحدها هى التى ترتفع بالنفس إلى الأشياء العظيمة ، ولن يبلغ شىء ذروة السمو فى الأخلاق أو الأعمال بدون الأنفعالات ، فقد ترجع الفنون القهقرى إلى طفولتها ، وتتقلص الفضيلة إلى أتفه الأعمال بدونها[٤] . ولكن الأنفعالات بدون نظام تكون مدمرة . ويجدر أن يكون هناك بعض التنسيق بينها ، ولا بد من إيجاد طريقة ليكبح الواحد جماح الآخر . ومن هنا نحتاج إلى العقل ، وينبغى أن يكون أعظم هاد ومرشد لنا ، وهنا كانت محاولة مبكرة فى عصر التنوير للتوفيق بين العقل والوجدان ، بين فولتير وروسو .

وكان ديدرو ، مثل فولتير ، فى أولى مراحل تطوره ونموه ، ربوبيا . أن شواهد تصميم العالم وتكوينه ترغم على الإيمان برب ذكى بارع . ويمكن أن يفسر المذهب الآلى المادة والحركة ، ولكنه لا يستطيع تفسير الحياة والفكر. أن ملحد المستقبل تحدى الملحدين أن يفسروا عجائب حياة الحشرات التى كشفت عنها حديثا أبحاث ربومير وبونيه :

هل رأيتم فى تفكير أى إنسان وأعماله ، ذكاءا ونظاما وحكمة وأتساقا أكثر من تركيب الحشرة ؟ اليست بصمات الإله وأضحة فى عين البعوضة الصغيرة وضوح موهبة التفكير فى أعمال نيوتن العظيم ؟ . . . فكروا فقط فى أنى لم أبرز لكم إلا جناح الفراشة وعين البعوضة . على حين كان يمكن أن أسحقكم بثقل الكون(٥) .

ومهما يكن من أمر فأن ديدرو نبذ فى إزدراء الإله الذى جاء به الكتاب المقدس حيث بدأ له هذا الرب جباراً قاسياً غاية الجبروت والقسوة ، واتهم الكنيسة التى نشرت هذا المفهوم بأنها منبع الجهل والتعصب والأضطهاد . وهل ثمة شىء أشد حمقاً وسخفا من أن يجعل الهاً يموت على الصليب ليهدىء من غضب الله على رجل وامراة ماتا منذ أربعة آلاف سنة . ثم — كما يقول بعض رجال اللاهوت « إذا لعنت وعذبت ألف نفس مقابل خلاص نفس واحدة ، اليس الشيطان هو الرابح فى هذه القضية ، دون أن يسلم الرب أبنه إلى الموت ؟ ولم يعترف ديدرو بأى وحى الهى سوى الطبيعة نفسها . وناشد قراءه أن يرتفعوا إلى مفهوم رب جدير بالكون الذى كشف عنه العلم . وطالب « بتكبير إلاله وتحريره(٦) » .

وأمر برلمان باريس باحراق الكتاب بمعرفة المدعى العام بتهمة « تقديمه إلى الأذهان القلقة المضطربة الجرئية أشد الأفكار سخفا وأجراما ، والتى من شأنها إفساد الطبيعة البشرية ، وبوضعه كل الأديان فى مستوى واحد تقريباً ، فى ارتياب مصطنع ، حتى ينتهى إلى عدم الأعتراف بها جميعا(٧) ولما كان أحراق الكتاب الصغير (٧ يوليو ١٧٤٦) بمثابة أعلان عنه ، فوجد له عدداً غير متوقع من القراء ، وترجم إلى

الالمانية والأيطالية ، ولما تهامس الناس بأن ديدرو هو مؤلفه ، أرتفع إلى مرتبة تدانى فولتير . وتسلم من الناشر ٥٠ جنيها ذهباً . أعطاها لعشيقته التى كانت فى حاجة إلى ملابس جديدة .

ولما تزايدت مطالب مدام دى بويسييه ، ألف ديدرو كتاباً آخر (١٧٤٧) سمع به كاهن الأبرشية ، فتقدم بالرجاء إلى الشرطة لتحمى المسيحية من هجوم ثان . ففاجأ رجال الشرطة المؤلف فى داره وصادروا مخطوطة الكتاب ، أو كما يروى بعضهم ، قنعوا بوعد منه بعدم نشره . وعلى أية حال لم يظهر كتاب « نزهة الشكاك » حتى ١٨٣٠ ولم يزد هذا الكتاب شيئا فى شهرة المؤلف ولكن كان فيه تنفيس عن مشاعره . ولجأ إلى حيلة الفليسوف الأثيرة لديه فى المراوغة ، إلا وهى الحوار ، فهيأ لربوبى وقائل بوحدة الوجود (الله والطبيعة شىء واحد ، الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات لألهية) وملحد ، بأن يشرحوا وجهات نظرهم فى الألوهية . ويكرر الربوبى فى حماسة الحجة المأخوذه من تصميم الكون ، ولم يكن ديدرو مقتنعا بعد بأن تكيف الوسائل مع الغايات فى الكائنات هو تكييف رائع ممتاز يمكن تفسيره بعملية عمياء من تطور أتفاق جاء مصادفة . أما الملحد فيصر على أن المادة والحركة والفيزياء والكيمياء تفسير للكون أفضل من إله لا يفعل إلا أن يؤجل مشكلة الأصل أو المنشأ . أما القائل بوحدة الوجود ، وكانت له الكلمة الأخيرة والقول الفصل ، فيعتقد أن الذهن والمادة أبديان معاً ، وأنهما يؤلفان الكون ، وأن هذه الوحدة الكونية هى الله . وربما كان ديدرو يقرأ سبينوزا .

وكان عام ١٧٤٨ مثيراً ومجهداً . كانت أنطوانيت قد وضعت طفلا . وكانت مدام دى بويسييه تطالب بتعويض عن الزنى والفجور ، ومن المحتمل أن ديدرو ، رغبة فى الحصول على المال بسرعة ، كتب آنذاك قصة فاجرة « الحلى الزائفة » وبناء على ما أوردته أبنته (مدام دى فانديل مستقبلا فى كتابها : مذكرات من تاريخ حياة وأعمال ديدرو) — ولاينبغى الأخذ بما جاء به قبل التأكد من صحته — فأن ديدرو ذكر لعشيقته أن كتابة قصة مسألة سهلة نسبيا ، ولكنها تحدته فى ذلك فراهن على تأليف قصة ناجحة فى

أسبوعين ، ووأضح أنه كان يقلد كربيون Crebillon الأصغر فى « الأريكة» ١٧٤٠ حيث أخذت أريكة تتذكر من جديد عدد العاشقين الذين كانت تئن تحتهم . وتخيل ديدرو خاتما سحريا عند أحد السلاطين إذا وجهه إلى الحلى الزائفة عند المرأة ، جعلها وعشيقها يعترفان بكل ما قاسى الأثنان وعانيا من الغرام . ووجه الخاتم السحرى إلى ثلاثين سيدة ، وما كاد يفتر عنصر التشويق والأمتاع فى المجلدين كليهما . وخلط المؤلف البذاءة بشىء من الملاحظات المثيرة عن الموسيقى والأدب والمسرح — وأضاف حلما رأى فيه السلطان طفلا يسمى « التجربة » أخذ ينمو ويكبر ويقوى حتى دمر معبداً قديما أسمه « الفرضية » وحقق الكتاب غرضه على الرغم من إقحام الفلسفة فيه ، حيث أمكن أن يدر مالا ، ودفع الناشر لورنت دوراندا لديدرو مبلغ ١٢٠٠ جنيه فى المخطوطة وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن يباع إلا خلسة فقد عاد بربح وفير . وخرجت ست طبعات بالفرنسية فى ١٧٤٨ وظهرت عشر طبعات فى فرنسا بين عامى ١٩٢٠ — ١٩٦٠ والواقع أن هذا أوسع كتب ديدرو أنتشارا وأكثر عدد طبعات[٨] .

وبدل ديدرو من طبعه وحالته النفسية حين كتب رسائل علمية . وقدر أحسن التقدير كتابه « مذكرات فى موضوعات مختلفة فى الرياضيات » (١٧٤٨) الذى ضم أبحاثا علمية أصيلية فى الصوت والجهد ومقاومة الهواء ، « وتصميما لا رغن جديد » يمكن أن يعزف عليه أى إنسان . وأثنت « مجلة الرجل المهذب » « وصحيفة العلماء » على بعض المقالات ، بل إن صحيفة اليسوعيين « دى تريفو » إمتدحتها ، ودعت إلى مزيد من مثل هذه الأبحاث من رجل بارع قدير مثل مسيو ديدرو الذى نلاحظ أن أسلوبه رشيق واضح غير متكلف بقدر ما هو مبدع[٩] . وظل ديدرو طوال حياته ينطلق بشكل غير متواصل إلى العلوم الطبيعية . ولكن إزداد ميله إلى مسائل علم النفس والفلسفة . وكاد يكون فى كل مجال تقريباً أكثر المفكرين أصالة فى زمانه .

٢ — الأعمى والأصم والأبكم ١٧٤٩ — ١٧٥١

لفت نظر ديدرو بوجه خاص مسألة كان قد أثارها وليم مولينكس الايرلندى ١٦٩٢ : هل يستطيع إنسان ولد أعمى كان قد تعلم التميز بين مكعب وجسم كروى باللمس . أن يفرق فى الحال إذا عاد إليه بصره ، بين هذين الجسمين ، أو هل يقتضى الأمر قبل هذا التفريق بعض الخبرة فى العلاقات بين الأشكال ملموسة ونفس الأشكال مرئية ؟ وجاء الجواب الثانى من مولينكس وصديقه لوك . وفى ١٧٢٨ قام وليم شزلدن بتجربة ناجحة على صبي فى الرابعة عشرة من عمره ، كان ضريراً عند الولادة ، وكان لزاما أن يتدرب الصبي قبل أن يتمكن من التميز بين الأشكال بالنظر وحده . ولأحظ ديدرو أيضا بعناية مثيرة حياة نيقولا سوندرسن الذى فقد بصره فى عامة الأول ، ولم يسترده قط ، ولكنه إبتدع لنفسه كتابة رياضية خاصة على طريقة بريل ، ومن ثم أكتسب قدرة إلى درجة عين معها أستاذا للرياضيات فى كمبردج .

وفى أوائل ١٧٤٩ دعا ريومور مجموعة مختارة من الناس ليشاهدوا ماذا يحدث عند إزالة الضمادات عن عينى امرأة أجريت لها عملية لعلاجها من عمى خلقى . وأستاء ديدرو وجرحت كبرياؤه لأنه لم يدع هو والفلاسفة الآخرون إلى هذه المناسبة . وباستهتاره المعهود قال إن ريومور كان قد رتب أن ترفع الضمادات أمام « بعض عيون لا قيمة ولا شأن لها[١٠] » وطبقا لما روته أبنة ديدرو أساءت هذه العبارة إلى مدام ديبرى دى سانت مور التى كانت تفتخر بعينيها والتى كانت العشيقة الحالية لمدير المكتبة الحالى ، أو كبير مراقبي المطبوعات الكونت دارجنسون (مارك بيير ، الأخ الأصغر للمركيز رينيه لويس) .

وفى ٩ يونيو نشر دوراند كتاب ديدرو « رسالة عن العميان لخدمة المبصرين » وكانت على شكل رسالة موجهة إلى مدام بويسبيه . وبدأت بوصف زيارة قام بها ديدرو وبعض الأصدقاء ازارع كروم أعمى . وأذهلهم روح النظام عند الرجل المكفوف البصر إلى الحد الذى تعتمد عليه فيه زوجته

بالليل فى إعادة كل شيء إلى مكانه بعد فساد النظام أثناء النهار . وكانت حواسه الباقية أحد وأقوى من حواس الناس العاديين « وهناك بالنسبة له فروق بسيطة لاتكاد تذكر من نعومة الأجسام ، وهى فروق لاتقل دقة عن الفروق بين أصداء الأصوات ، ولاخوف من أن يحسب خطأ أن سيدة أخرى هى زوجته ، إلا اذا كان فى المبادلة كسباً له (١١) ولم يكن يدرك كيف يعرف الانسان الوجه دون أن يلمسه . وانحصرت روح الجمال عنده فى الأشياء الملموسة وفى رخامة الصوت والمنفعة ولا يجد عاراً فى العرى لأنه يجد أن فى الثياب حماية من الجو لا اخفاء الجسم عن أعين الآخرين . واعتبر السرقة جريمة كبرى لأنه يقف حيالها عاجزاً لاحول له ولا قوة .

وخلص ديدرو إلى أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله ، بل من خبرتنا الحسية . بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها ، وهى أيضاً مثل فكرتنا عن الأخلاق ، نسبية متنوعة . ووجود الله مشكوك فيه لأن البرهان من أصل الوجود فقد كثيراً من قوته . حقاً هناك شواهد وبراهين على التصميم والتركيب فى كثير من الكائنات والأعضاء مثلما هو فى الدبابة والعين ، ولكن ليس ثمة شواهد على التصميم فى الكون باعتباره كلا ، لأن بعض الأجزاء عوائق — إن لم تكن أعداء فتاكة — لأجزاء أخرى ، وكل تركيب تقريباً محكوم عليه أن يلتهمه تركيب عضوى آخر وتبدو العين مثالا رائعاً لتطابق الوسائل مع الغايات ، ولكن فيها عيوب وشوائب جسيمة (كما يوضح هلمهولتز هذا تفصيلا فيما بعد) وثمة عفوية أو تلقائية خلاقة فى الطبيعة ، ولكنها نصف عمياء . وتؤدى إلى كثير من الخلل والاضطراب والتبديد والضياع . وزعم ديدرو أنه اقتبس من كتاب « حياة دكتور نيقولا سوندرسون وخلقه لمؤلفه وليم انشليف (وواضح أنه لم يوجد قط) ، فأجرى على لسان الأستاذ الأعمى قوله « لماذا تحدثنى عن هذا المشهد الجميل الذى لم يصنع من أجلى قط ؟ . . . إذا أردت منى أن أومن بالله فينبغى أن تجعلنى ألمسه (١٢) وفى سيرة الحياة الوهمية هذه رفض

سوندرسن الإيمان بالله (*) وعزا نظام الكون إلى انتقاء طبيعى للأعضاء والتركيبات العضوية عن طريق بقاء الأصلح .

كل تركيبات معيبة ناقصة من المادة اختفت . ولم يبق منها إلا ما انطوى تركيبه على تعارض غير ذى أهمية ، والتى يمكن أن تستمر وتبقى بوسائلها الخاصة وتتوالد بنفسها . . . بل إن نظام العالم الآن ليس بالغ الكمال ، ولكن النتاجات الضخمة الغريبة تظهر من حين إلى حين . . . ماهو العالم ؟ إنه مركب خاضع لثورات تشير كل منها إلى نزعة ملحة إلى التدمير ، تسلسل سريع للكائنات يعقب بعضها بعضاً . ويدفع بعضها بعضاً ثم تختفى (١٣) ويختتم ديدرو بمذهب اللاأدرية : « وأجسرتاه يا سيدتى ، إننا إذ نضع المعرفة الإنسانية فى ميزان مونتانى فلن نبعد عن شعاره ، لماذا نكتسب المعرفة ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة المادة ، وعن طبيعة الذهن والفكر ، لانعرف إلا أقل من ذلك . بل لا نعرف شيئاً إطلاقاً (١٤) .

وجملة القول إن رسالة العميان من أعظم وأروع ما كتب فى عصر الاستنارة فى فرنسا . إنه كتاب جميل ساحر من حيث السرد والقصص ، كما أنه يتميز بدقة الملاحظة والتبصر البارع العطوف بوصفه بحثاً فى علم النفس ، كما يتميز بخيال مثير بوصفه بحثاً فى الفلسفة ، وهو مرهق قرب انتهاء صفحاته الستين ولكنه يضم بعض ما يجافى الحشمة مما لايكاد يليق برسالة مفروض إنها موجهة إلى سيدة ، ولكن ربما كانت مدام دى بويسييه متعودة على خاط ديدرو بين بذاءة السوقة وسعة الاطلاع والمعرفة . وشمل البحث ، لحسن الحظ ، اقتراحاً مفصلا لما عرف فيما بعد باسم طريقة لويس بريل (١٥) .

وأرسل فولتير الذى كان آنذاك فى باريس (١٧٤٩) إلى ديدرو تقريظاً حماسياً للبحث ، قال فيه : « قرأت فى سرور بالغ كتابك الذى يذكر الشىء الكثير ويوحى بشىء أكثر . وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير ، بقدر ما أحتقر أولئك الهمج الأغبياء الذين ينقصون من قدر مالا يفهمون . . .

(*) مات سوندرسن ، طبقاً لما رواه أصدقاؤه ، متمسكاً بدينه . واستاءت الجمعية الملكية بلندن من نسبة ديدرو الإلحاد إلى أحد أعضائها ، ولم تسمح له قط بالانضمام إليها عضواً مراسلا .

ولكنى أعترف لك أنى لست من رأى ستدرسن الذى ينكر وجود إله ، لأنه ولد أعمى. وربما كنت مخطئاً ، ولكن لو أنى فى مكانه لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبنى اضافات كثيرة تكمل البصر. أود من كل قلبى أن أتحدث إليك . وليس يهمنى أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته، أو أنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية . وقبل مغادرتى لونفيل أرجو أن تشرفنى بتناول عشاء فلسفى معى، فى دارى بصحبة بعض الحكماء .

ورد عليه ديدرو فى ١١ يونية :

سيدى الأستاذ العزيز : إن اللحظة التى تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة . . . إن رأى سوندرسن ليس رأيى ولا هو رأيك . . . إنا أومن بالله ، ولكنى أنسجم كثيراً مع الملحدين ، ومن المهم جداً ألا نخلط بين الشوكران (نبات يستخرج منه شراب سام) والبقدونس . ولكن ليس يهمنى مطلقاً أن تؤمن بالله أولا تؤمن به . وقال مونتانى إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها . . . (١٦) .

وقبل ظهور أية نتيجة لهذه المراسلات قبض على ديدرو . ذلك أن الحكومة ثار غضبها لنقد صلح إكس لاشابل المذل علناً . وأودعت السجن نفرا من النقاد ، ورأت أن الوقت قد حان لكبح جماح ديدرو وإيقافه عند حده ولسنا ندرى إذا كان الالحاد المندس فى رسالة العميان هو الذى أثار إحتجاج رجال الدين ، أو أن مدام دبرى دى سانت مور وقد ساءتها إشارة ديدرو إلى العيون التى لاقيمة لها قد حفزت عشيقها (كبير مراقبى المطبوعات) إلى إتخاذ إجراء . وعلى أية حال فإن الكونت دارجنسون أرسل أمراً مختوماً (٢٣ يوليو ١٧٤٩) إلى ماركيز دى شاتيليه محافظ قلعة فنسان « إستقبلوا فى القلعة المدعو ديدرو ، وأودعوه فى السجن لحين صدور أوامر أخرى منى »(١٧) وفى الصباح الباكر فى اليوم التالى طرق رجال الشرطة باب ديدرو ، وفتشوا مسكنه ووجدوا نسختين أو ثلاثا غير مجلدة من رسالة العميان ، وعدة صناديق مملوءة بمادة الموسوعة الشهيرة التى كان يعدها

ديدرو ، وحملوها إلى القلعة (فى ضواحى باريس) حيث وضع وحيداً فى زنزانة فى القلعة الـكئيبة ، وسمح له بالاحتفاظ بكتاب كان فى جيبه عند إعتقاله « الفردوس المفقود » وتهيأ له الآن فسحة من الوقت لقراءته بعناية . وكتب عليه حواشى وتعليقات بغير الطريقة التقليدية . واستخدم صفحاته الخالية فى تدوين بعض أفـكار وموضوعات أقل ورعاً وتديناً ، وتوصل إلى صنع الحبر من كشط الاردواز من الجدران وطحنه وخلطه بالنبيذ ، وإستخدام عودا من الخلال قلماً . وفى نفس الوقت هرعت زوجته التى عاشت بمكتئبة مع طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات إلى رئيس الشرطة بريبه ، وتوسلت إليه أن يطلق سراح زوجها ، وأنكرت علمها بكتاباته « وكل ما أعرفه أن كتاباته شبيهة بسلوكه . أنه يعتز بالشرف أكثر ألف مرة مما يعتز بالحياة ، وإن مؤلفاته لتعكس الفضائل التى يتمسك بها[١٨] .» وإذا كانت إنطوانيت لاتعلم شيئاً عن مدام دى بوبسييه ، فإن الشرطة كانت تعلم ، وكان أشد فعالية وتأثيراً من ذلك الالتماس الذى تقدم به الرجال الذين عهدوا إلى ديدرو تحرير الموسوعة ، حيث أكدوا لـكونت دارجنسون أن المشروع لايمكن أن يخطو خطوة بدون السجين . وفى ٣١ يوليو استدعى بريبه ديدرو وحقق معه وأنكر ديدرو أنه مؤلف « رسالة العميان » وكتاب « الأفكار » وكتاب « الحلى الزائفة » وأدرك رئيس الشرطة أنه يكذب ، وأعاده إلى السجن .

وفى شهر أغسطس ، كتبت مدام دى شاتيليه — قبل وفاتها بشهر واحد والمفروض أن هذا بايعاز من فولتير ، من لونفيل إلى قريبها محافظ فنسان ، ترجوه على الأقل أن يخفف من الشدة التى يعامل بها ديدرو . وحوالى ١٠ أغسطس عرض بريبه أن يسمح للسجين بالتمتع بالحرية والتيسيرات فى قاعة السجن الـكبرى مع الترخيص له باستقبال الزوار وتلقى الـكتب ، إذا قدم إعترافاً صادقاً . وفى ١٣ أغسطس وجه الفيلسوف المعاقب إلى بريبه الوثيقة الآتية : —

أعترف لك بأن الكتب الثلاثة أن هى إلا نزوات غوايه أملاها ذهن تملص منى ، ولـكنى أستطيع . . . أن أعد تحت كلمة الشرف (وأنا فعلا رجل شريف) بأنها ستكون الأخيرة . . . وستكون الوحيده . . . أما بالنسبة لهؤلاء الذين اشتركوا فى نشر الـكتب وطبعها ، فلن أخفى عنكم شيئاً يتعلق بهم ، وسأفضى إليك سرا بأسماء الناشرين والطابعين [١٩].

وفى ٢٠ أغسطس أطلق سراحه من الزنزانة . ووضعوه فى غرفة مريحة، وسمح له باستقبال الزائرين والتنزه فى حدائق القلعة ، وفى يوم ٢١ وقع تعهداً بألا يغادر المبنى أو منطقته دون ترخيص رسمى . وجاءت إليه زوجته لتواسيه وتؤنبه وتلومه ، وبعث من جديد حبه القديم لها . وزاره دالمبير ورسو ومدام دى بوبسييه وجاء إليه ملتزمو الموسوعة ببعض المخطوطات واستأنف عمله فى تحريرها . ومنذ علم أن أخاه أبلغ أباه بنبأ إعتقاله فانه كتب إلى الوالد « السكاكينى » المتألم ، وأدعى أن اعتقاله كان بناء على مكيده إحدى السيدات ، وطلب منه معونة مالية . وفى ٣ سبتمبر أرسل الوالد رداً يكشف عن الجانب الانسانى فى الصراع بين الدين والفلاسفة :

يابنى : تسلمت خطابيك اللذين بعثت بهما إلى مؤخوا ، تنبئنى بخبر إعتقالك وسببه ، ولم أتمالك نفسى من القول بأنه لابد بالتأكيد أن هناك أسباباً أخرى غير التى ذكرتها فى أحد الخطابين . . . وحيث أنه لايحدث شىء إلا بإذن الله ، فإنى لست أدرى أيهما أفضل لتقويم خلقك : اخلاء سبيلك أو إطالة مدة بقائك فى السجن لمدة شهور أخرى لتفكر جيداً وملياً فى نفسك . ولا تنس أن الله إذا كان قد أنعم عليك بالمواهب ، فإنه منحك إياها لا لتستخدمها فى العمل على أضعاف مبادىء عقيدتنا المقدسة . لقد قدمت دليلا كافياً على حبى لك . هيأت لك فرصة التعلم على أمل أن تفيد منه أعظم فائدة ، لا أن تورثنى أشد الهم والغم والـكمد حين علمت بما لحق بك من خزى وعار . . . سامحنى يابنى . ولسوف أصفح عنك . أنا أعلم أنه ليس ثمة إنسان بمنجاة عن الافتراء وتشويه السمعة ، وأنهم قد ينسبون

إليك أعمالا لم تشترك فيها . . . ولن يكون لك إعتبار أو قيمة فى نظرى إلا إذا صدقتنى القول دون لبس أو مواربة ، بأنك كما أبلغونى من باريس بأنك تزوجت وأن لك طفلين . فان كان الزواج شرعياً وأن الأمر قد إنتهى فأنا راض ، وآمل ألا تضن على شقيقتك بالشعور بالفرح لتنشئهما ، وعلى بالسعادة لرؤيتهما أمام عينى . . . إنك تسألنى مالا . ماذا ! إن رجلا مثلك يعمل فى مشروعات ضخمة . . . هل يمكن أن يكون فى حاجة إلى مال ؟ ولقد قضيت شهراً فى مكان لاتكلفك الإقامة فيه شيئاً ؟ . . . تذكر أمك المسكينة . . . إنها فى تأنيبها لك ، كم من مرة قالت إنك أعمى . . . قدم لى الدليل على عكس ذلك . ومرة أخرى ، وقبل كل شىء ، كن صادقاً ومخلصاً فى الوفاء بوعودك . . . ستجد مرفقاً بهذا حوالة بمائة وخمسين جنيهاً . . . تنفقها كما تريد . . . وإنى لأنتظر بفارغ الصبر اليوم الذى تخفف فيه من آلامى وهمومى حين أعلم بنبأ إطلاق سراحك . . . وسأقدم الشكر لله حالما أعلم ذلك .

مع كل الحب الذى أكنه لك . . .

(والدك الحبيب ديدرو)[٢٠]

ولسنا ندرى ماذا كان رد دنيس . وربما وجد مشقة فى مجاراة هذه الرسالة فى نبلها . وفى ٣ نوفمبر ١٧٤٩ أفرج عنه بعد قضاء ثلاثة شهور ونصف شهر فى السجن . وقصد داره سعيداً مبتهجاً بالعودة إلى زوجته وصغاره ، ونسى مدام دى بويسييه لفترة من الوقت ؛ ولكن فى ٣٠ يونية ١٧٥٠ مات إبنه البالغ من العمر أربع سنوات ، إثر حمى شديدة ، وأنجب طفلا ثالثا بعد ذلك مباشرة . ولكنه أوذى أذى بالغاً عند تعميده ، حيث أوقعه أحد الخدم على الأرض فى الكنيسة ، وما لبث أن فارق الحياة قبل انقضاء عام واحد على مولدة ، وهكذا ولد له ثلاثة ومات ثلاثتهم (وعاد ديدرو إلى أمسياته فى مقهى بروكوب . وحوالى ١٧٥٠ قدمه روسو إلى فودريك ملخيور جريم ، وهناك بدأ ثالوث من الصداقة كان له بعض الأهمية

فى عالم الأدب . وتلك هى السنة التى غادر فيها فولتير فرنسا إلى برلين وكتب فيها روسو بحثه الذى نال به الجائزة عن (المدنية مرض) وأصدر ديدرو نشرة تمهيدية عن الموسوعة :

وبينما كان ديدرو يعمل فى المجلد الأول من مشروع الموسوعة استطرد إلى تحقيق فى علم النفس نشر نتائجه (١٧٥١) فى « رسالة عن الصم والبكم لخدمة أولئك الذين يسمعون ويتكلمون » . ولم يكن ديدرو قد نسى قلعة فنسان بعد ، ومن ثم تجنب الهرطقة ، وتسلم من الرقيب (مالشرب الطيب الرحيم آنذاك) « إذناً ضمنياً » بنشر الكتاب فى فرنسا دون ذكر إسمه ، ودون خوف من المحاكمة أو المقاضاة . واقترح ديدرو أن يوجه أسئلة إلى أحد الصم البكم ، ويلاحظ الايماءات التى يجيب بها الأصم الأبكم على هذه الأسئلة ، وبذلك يلقى الضوء على منشأ اللغة عن طريق الإشارات والايماءات . أن الممثل القدير (وكان ديدرو آنذاك منشغلا بوضع كتابه « تناقض الممثل » ينقل أحياناً عن طريق إيماءة أو تعبير بالوجه فكرة أو إحساساً بشكل أعظم تأثيراً منه عن طريق الألفاظ . ومن الجائز أن الألفاظ الأولى (فى اللغة) كانت عبارة عن إيماءات صوتية أو معبرة توضح فكرة فى الذهن ، وليس للفظة التى يختارها الشاعر دلالة أو معنى عقلى فحسب ، ولكن لها كذلك مفهوماً رمزياً متضمناً وفارقاً دقيقاً لايكاد يذكر ، ولها تضمينات بصرية (قارن مثلا بين يرى ويتفرس أو يحدق النظر أو نغمات توافقية فى الصوت ، قارن بين يقول ويتذمر ، Say, murmur ومن ثم فان الشعر الحقيقى تتعذر ترجمته) .

والحديث — كما هو معهود فى ديدرو مضطرب يعوزه الترتيب والنظام ولـــكنه زاخر بالجوانب الموحية . « قد تكون فكرتى أن أحلل الإنسان إذا جاز التعبير ، وأدرس ماذا يستمد من كل حاسة من حواسه » . (بنى كوندياك مؤخراً فى ١٧٥٤ ، رسالته عن الأحاسيس حول هذه الفكرة) أو قارن مرة أخرى بين الشعر والرسم ، أن الشاعر يستطيع أن يسرد

الأحداث على حين يبرز الرسام لحظة واحدة ، وصورته عبارة عن إشارة تحاول أن تعبر فى وقت واحد عن الماضى والحاضر والمستقبل . وهنا كانت بذرة فى كتاب ليسنج « لاوكون » (١٧٦٦) .

ولكن فى هذه الاثناء كان المجلد الأول من الموسوعة معداً للنشر .

٣ — تاريخ كتاب : ١٧٤٦ — ١٧٦٥

قال الناقد الكاثوليكى برونتيير « إن الموسوعة أعظم عمل فى عصرها ، والهدف الذى كان يصبو إليه كل شىء سبقها ، ومصدر كل شىء جاء بعدها ، ومن ثم فإنها المركز الحقيقى لأى تاريخ للأفكار فى القرن الثامن عشر » .(٢١) وقال ديدرو إن محاولة إخراج موسوعة إنما تنسب فقط إلى قرن فلسفى .(٢٢) إن عمل بيكون وديكارت وهوبز ولوك وباركلى وسبينوزا وبيل وليبنيتز فى الفلسفة ، والنهوض بالعلوم على أيدى كوبرنيكس وفيساليوس وكبلر وجاليليو وهوجينز ونيوتن ، وإرشياد الأرض بفضل الملاحين والبعثات التبشيرية والسياح ، وإعادة الكشف عن الماضى على أيدى الباحثين والمؤرخين ، كل هذه المعرفة المتراكمة انتظرت لتنسق فى موسوعة تكون فى متناول الجميع وخدمتهم .

وبدا فى أول الأمر أن « موسوعة تشامبرز » أو « القاموس العالمى للفنون والعلوم » (١٧٢٨) قد يسد هذه الحاجة . وفى ١٧٤٣ اقترح ناشر فى باريس هوأندريه فرنسوا لى بريتون ترجمته إلى الفرنسية مع بعض تعديلات وإضافات تفى بحاجة فرنسا . ونما المشروع ليظهر فى عشر مجلدات ولمواجهة النفقات أشرك لى بريتون معه فى هذه المهمة ثلاثة ناشرين آخرين هم برياسون ودافيد ودوران . واستخدموا الأب دى جوا دى مالف محررا . وحصلوا على إذن ملكى بالطبع ، وأصدروا فى ١٧٤٥ نشرة مؤقتة . ورأى الناشرون أو رأى المحرر دى جوا دى مالف الاستعانة بديدرو ود المبير . وفى ١٧٤٧ انسحب دى جوا دى مالف . وفى ١٦ أكتوبر عين الناشرون ديدرو ورئيساً

للتحرير مقابل راتب قدره ١٤٤ جنيهاً فى الشهر. وطلبو إلى دالمبير أن يكون مسئولا عن مقالات الرياضيات.

وكلما تقدم العمل ازداد ديدرو سخطاً على نص تشامبرز ويمكن أن تقدر هذا السخط والاستياء إذا عرفنا أن ديدرو خصص للتشريح ٥٦عموداً على حين أفرد له تشامبرز عموداً واحداً ، وللزراعة ١٤دعموداً ، على حين أوردها تشامبرز فى ستة وثلاثين سطراً . وأخيراً أوصى بتنحية قاموس تشامبرز جانباً وإعداد موسوعة جديدة تماماً ، (وربما اقترح مالف هذا فوراً) . ووافق الناشرون واستحث ديدرو (ولم يكن قد اتضح بعد أنه المؤلف الزنديق لرسالة العميان) المستشار الجاد المتدين دى أجسو حتى يشمل الترخيص الملكى المشروع الموسع (أبريل ١٧٤٨) .

ولكن كيف كان يمكن تمويل الشروع ؟ قدر لى بريتون أنه قد يكلف مليون جنيه . والواقع أنه تكلف مليوناً وأربعمائة ألف — حتى ولو كان من المشكوك فيه كثيراً أن يكون عدد المشتركين كافياً إلى حد يدفعون معه بالموسوعة إلى المطبعة . وكان ديدرو قد أعد بالفعل كثيراً من المقالات وحصل على عدد آخر منها من أجل المجلدات الأولى حين أوقف أعتقاله فى فنسان سير العمل . وعندما أطلق سراحه تفرغ تفرغاً كاملا للمضى فى المشروع . وفى نوفمبر ١٧٥٠ أخرج الناشرون ثمانية آلاف نسخة من نشرة تمهيدية دبجها يراع ديدرو . (وفى ١٩٥٠ أعادت الحكومة الفرنسية طبع هذه النشرة تذكاراً وطنياً لهذا الحادث) . وأعلنت هذه النشرة أن فريقاً من الأدباء والخبراء والمتخصصين اتجه رأيهم إلى جمع المادة الموجودة فى العلوم والفنون فى صعيد واحد مرتبة ترتيباً أبجدياً ، مزودة بمراجع قد يسهل على العلماء والباحثين والطلاب استخدامها . وقالت النشرة إن لفظة الموسوعة أو دائرة المعارف تدل على العلاقات المتبادلة بين العلوم وهى تعنى حرفياً التثقيف أو التعليم مجموعاً فى صعيد واحد . وقال ديدرو إن المعرفة لم تتم على أوسع نطاق فحسب ولكن الحاجة إلى نشرها مهمة كذلك ،

حيث لاجدوى منها إلا اذا أفاد منها الجميع . وجاء فى النشرة أن هذا كله سوف تضمه ثمانية مجلدات للنصوص ومجلدان للوحات والرسوم ، وحدد الاشتراك بمائتين وثمانين جنيهاً للمجموعة تدفع على تسعة أقساط . ويجب تسديد المبلغ كله على مدى عامين . وتبدو لنا الآن هذه النشرة وكأنها أحد الأعلانات بأن عصر العلم قد بدأ . وأن عقيدة جديدة قد ظهرت لخلاص الجنس البشرى .

وكانت الأستجابة للنشرة مشجعة ، وبخاصة لدى الطبقة الوسطى العليا . وتبين بعد وفاة مدام جيوفرين أنها وزوجها أسهما فى نفقات الموسوعة بمبلغ ٥٠٠ ألف جنيه(٢٣) .

وبهذه الموسوعة فى فرنسا وقاموس جونسون فى إنجلترا (١٧٥٥) أعلن الأدب الأوربى إستقلاله عن الأرستقراطيين والأهداءات الذليلة ، وإتجه إلى الجمهور العريض الذى عرض هذا الأدب أن يكون عينه التى تبصر وصوته الذى يعبر . وكانت الموسوعة أشهر تجربة لتبسيط المعرفة ونشرها(٢٤) .

وظهر المجلد والأول فى ٢٨ يونية ١٧٥١ محتويا على ٩١٤ صفحة من القطع الكبيرة من ذات النهرين . وكانت صورة الصفحة الأولى من رسم شارل كوشان ، وكانت رمزاً صادقاً للقرن الثامن عشر ، فقد أبرزت البشرية تتلمس طريقها إلى المعرفة تمثلها امرأة جميلة فى ثوب رقيق شفاف . وكان العنوان مثيراً : الموسوعة أو قاموس موضوع بعد دراسة وترو لمختلف العلوم والفنون والمواد ألفه فريق من رجال الأدب رتبه وحرره ديدرو وتعهد قسم الرياضيات فيه دالمبير ، ونشر بتصديق من الملك وترخيص منه وأهدى المجلد من باب الحكمة إلى السيد الكونت دار جنسون وزير الحربية . ولم يكن موسوعة بالمعنى الحالى عندنا ، فانها لم تر أن تشمل سير حياة أو تاريخا . ولكن الغريب فى الأمر أنها تضمنت بعض سير الحياة تحت عنوان محل الميلاد للشخص . ومن جهة أخرى كانت بشكل جزئى قاموسا عرض لتعريف بعض المصطلحات وإيراد المترادفات وبعض قواعد الأجرومية .

وأبرز ما فى المجلد الأول وأجدره بالذكر هو « مقال تمهيدى » ووقع الأختيار على دالمبير لكتابته لأنه كان معروفا بأنه من رجال العلم المرموقين وبأنه كذلك من البارعين الأفذاذ فى النثر الفرنسى ، وعلى الرغم من هذه المزايا كان دالمبير يحيا حياة رواقية بائسة فقيرة فى باريس . وحين وصف فولتير المشهد الرائع من لى دليس أجاب دالمبير : « أنت تكتب إلى من مخدعك حيث تشرف على عشرة فراسخ من البحيرات وأنا ارد عليك من جحرى الذى لا يشهد إلا رقعة من السماء لا تجاوز ثلاث أذرع »[٢٥] . وكان لا أدريا ، ولكنه لم ينضم إلى نقد علنى للكنيسة . وفى — مقاله التمهيدى حاول أن يفحص حجج معارضى الكنيسة :

« إن طبيعة الإنسان سر لا يمكن سبر أغواره إذا إستنار الإنسان بالعقل وحده . ويمكن أن نقول مثل هذا عن وجودنا فى الحاضر والمستقبل ، وعن جوهر « الكائن » الذى ندين له بهذا الوجود ، وعن نوع العبادة التى يتطلبها منا . ومن ثم فأننا أحوج ما نكون إلى ديانة منزلة تهدينا سواء السبيل فى مختلف الموضوعات[٢٦] . »

واعتذر لفولتير عن هذه الاحترامات : « أن مثل هذه العبارات هى أسلوب توثيقى ، وما هى إلا طريق وصول أو جواز مرور إلى الحقائق التى ننشد تدعيمها . . . أن الزمن سيعلم الناس كيف يميزون بين ما فكرنا فيه وما قلناه[٢٧] .

ونهج المقال التمهيدى نهج إقتراح لفرانسيس بيكون ، فصنفت المعارف وفق الموهبة العقلية التى تنتج عنها : فوضع التاريخ تحت بند « الذاكرة » والعلوم فى باب « الفلسفة » واللاهوت تحت بند « العقل » والأدب والفن فى باب « الخيال » وكان ديدرو ودالمبير فخورين كل الفخر بهذا التقسيم وجعلا منه ورقة مطوية وضعاها بعد المقال أو خريطة للمعرفة أثارت أشد الأعجاب . وكان أقوى أثر فى الموسوعة بعد أثر بيكون هـــو أثر لوك . « أننا مدينون للأحاسيس بكل أفكارنا » . هذا هو ما جاء فى المقال . ومن

هذا البيان راود الأمل المحررين على مدى المجلدات الثمانية أن يستنتجوا فلسفة كاملة دينا طبيعيا يهبط بالاله إلى مجرد دفعة إبتدائية أولى وإن يستنتجوا علم نفس طبيعيا يجعل الذهن وظيفة من وظائف الجسم ، ومبادىء أخلاق طبيعية تحدد الفضيلة على أساس واجبات الإنسان نحو الإنسان لا نحو الله — وتضمن « المقال التمهيدى » هذا البرنامج فى حرص وحذر .

ومن هذه المبادىء الأولى أنتقل دالمبير إلى إستعراض تاريخ العلم والفلسفة وأمتدح الأقدمين ، وأستنكر العصور الوسطى وانتقص من قدرها ، وهلل لعصر النهضة وأبتهج به :

لن نكون منصفين إذا لم نعترف بفضل أيطاليا علينا ، فمنها تلقينا العلوم التى انتجت فيما بعد ثمارا وفيرة فى كل أوربا . ونحن مدينون لها فوق كل شيء بالفنون الجميلة والذوق الرفيع الذى زودتنا منه بعدد كبير من نماذج لا تبارى أو تتعذر محاكاتها(٢٨) .

وجاء أبطال الفكر الحديث ليتوجوا بأكاليل الغار :

يجدر أن يوضع على رأس قائمة الشخصيات اللامعة مستشار إنجلترا الخالد فرانسيس بيكون الذى تستحق أعماله بحق أن ندرسها حتى أكثر من أن نمتدحها . أننا حين نتأمل وندرس آراء ونظرات هذا الرجل العظيم الحكيمة الواسعة الأفق ، والموضوعات الكثيرة التى أستعرضها فى ذهنه ، وجرأة أسلوبه التى جمعت فى كل موضع بين أروع الصور والأنطباعات الذهنية وبين أعظم الدقة والأحكام . فاننا نميل إلى اعتباره أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأشملهم وأوسعهم بحثا(٢٩) .

وأنتقل دالمبير ليبرز كيف أن عبقرية ديكارت العميقة الخصبة فى الرياضيات قد عوقها فى الفلسفة الأضطهاد الدينى :

إن ديكارت على الأقل تجاسر فبين للأذهان اليقظة كيف تتحرر من نير السكولاسية والرأى والسيطرة — وصفوة القول من التحيز والتحامل

obeikandi.com

والوحشية . وبهذه الثورة التى نجنى نحن ثمارها اليوم أدى ديكارت للفلسفة خدمة قد تكون أجـــل وأشق مما تدين به لخلفائه البارزين المشهورين . وقد نعتبره زعيم عصابة تعاهدت ، وكان لها من الشجاعة ما قادت به ثورة ضد سلطة أستبدادية . وأرسى بفضل تصميمه الأكيد المشجع الملهم أساس حكومة أعدل وأفضل ما كان يمكن أن يعيش ليراها قائمة ، وإذ أنتهى به التفكير إلى أيضاح كل شىء فأنه على الأقل بدأ بالشك فى كل شىء . إن الأسلحة التى يجب إستخدامها لمحاربته ليست على الرغم من ذلك أسلحته لأننا نصوبها إليه .

وبعد أن تحدث دالمبير عن نيوتن ولوك وليبنتز ختم حديثة بالإعراب عن إيمانه بالنتائج الطيبة للمعرفة التى تزكو وتنمو وتنتشر : « إن قرننا ليعتقد بأنه قد كتب عليه أن يغير القوانين فى جميع المجالات[٣٠] . ونشجع دالمبير بحرارة هذا الأمل فجعل من مقاله التمهيدى هذا تحفة من روائع النثر الفرنسى فى القرن الثامن عشر . وشارك بيفون وموتتسكيو فى الثناء على مقدمة الموسوعة هذه كما إعتبرها — أى صفحات المقدمة — من أعظم المقالات التى كتبت فى لغتنا فلسفة ومنطقا وإشراقا وأحكاما ودقة[٣١] .

ولم يكن المجلد الأول ضد الدين بشكل سافر . وكانت المقالات عن العقيدة والطقوس المسيحية تقليدية تقريباً . وأبرزت عدة مقالات بعض الصعوبات ، ولكنها أختتمت كلها عادة باحترام مهيب للكنيسة . وكثيراً ما وجدت هرطقات مغلفة وهجمات عارضة على الخرافة والتعصب ، ولكنها مستترة فى مقالات واضح أنها كانت تعالج موضوعات بريئة مثل « حمل سكيزيا » أو النسر . من ذلك أن ما كتب عن حمل سكيزيا توسعوا فيه حتى صار بحثا عن شواهد تركت الإيمان بالمعجزات فى حالة يرثى لها . كما أن مادة « النسر » بعد مناقشة سذاجة الناس وسرعة تصديقهم إنتهت بتهكم صريح :

« سعيد هذا الشعب الذى تطالبه ديانته ألا يؤمن إلا بالأشياء الحقيقية

المقدسة السامية الرفيعة الشأن ، وإلا يقتدى إلا بصالح الأعمال . ومثل هذه الديانة هى ديانتنا وهى التى فيها لا يتبع الفيلسوف إلا عقله حتى يصل إلى مذبحنا(٣٢) وفى شىء من المكر والدهاء كانوا يهاجمون الخرافات والأساطير هنا وهناك . وأنبثقت روح من الإنسانية العقلانية .

وعلى الرغم من كل شىء أستقبل اليسوعيون هذا المجلد أستقبالا ودياً . وأعترض جويوم فرنسوا برتييه المحرر العالم المثقف لصحيفة تريفو فى رقة وأدب على توكيد المقال التمهيدى على الفلاسفة المهرطقين ، وأشار إلى بعض الأخطاء والأنتحالات ، وطالب بتشديد الرقابة على المجلدات التى ستصدر فيما بعد ، ولكنه أثنى على الموسوعة مشروعا عظيما ضخما جدا يمكن لمحرريه بحق بعد إنجازه أن يطبقوا على أنفسهم قول هوراس « لقد أقمت نصبا أبقى من النحاس » .

ثم أضاف برتييه « ليس هناك من هو أكثر منا ميلا إلى تبين الخفايا الدقيقة فى الموسوعة ولسوف نعرضها برفق فى مقتطفاتنا القادمة(٣٣) .

وثمة كاهن آخر لم يكن مترفقا متساهلا إلى مثل هذا الحد ، وهو جان فرنسوا بوير أسقف ميربوا سابقاً الذى شكا المحررين إلى الملك بأنهم خدعوا الرقباء ، فأرسله الملك لويس إلى مالشرب الذى كان قد أصبح كبير مراقبي المطبوعات ، فوعد مالشرب بفحص المجلدات التالية بشكل أدق ، ولكنه أثناء توليه مناصب حكومية مختلفة استخدم كل نفوذه لحماية الفلاسفة . وكان من حسن حظ الثائرين أن هذا المسيحى جويودى مالشرب الذى كان قد أصبح متشككا حين قرأ كتابات بيل والذى كان قد ألف كتاب « حرية الصحافة » هو الذى كان رقيب المطبوعات من ١٧٥٠ — ١٧٦٣ وهى أحرج فترة فى حياة فولتير وديدرو وهلفشيوس وروسو . وكتب مالشرب « فى قرن كان يستطيع فيه كل مواطن أن يتحدث إلى الأمة عن طريق الكتاب فإن هؤلاء الذين أوتوا المقدرة على تعليم الناس وتثقيفهم أو موهبة التأثير فيهم — وفى إيجاز رجال الأدب — وسط شعب مشتت يقومون بالدور الذى

كان يقوم به محظباء رومه وأثينا فى شعب ملتف حولهم » . وشجع مالشرب الحركة الفكرية بمنح « تراخيص ضمنية » للمطبوعات التى لا يمكن أن تحصل فى ظل النظام القائم على ترخيص ملكى أو تنال إستحسان السلطات . ذلك أنه كان من رأيه أن الإنسان الذى لم يقرأ إلا الكتب التى صدرت بموافقة صريحة من الحكومة . . يكون متخلفا عن معاصريه بنحو قرن من الزمان تقريباً[٣٥] .

وانتهت هذه الفترة السعيدة فى حياة الموسوعة بحادث من أغرب الحوادث فى تاريخ عصر الأستنارة ، ذلك أنه فى ١٨ نوفمبر ١٧٥١ تقدم جان مارتن دى براد للحصول على درجة جامعية من السوربون ، وعرض على رجال اللاهوت رسالة ظاهرها البراءة والخلو من أية شائبة « من ذا الذى نفخ الله فى وجهه روح الحياة » ؟ وبينما كان النعاس يغلب على أعضاء هيئة الإمتحان عرض الراهب الشاب فى لغة لاتينية ممتازة تضاربات زمنية فى الكتاب المقدس ، وهبط بمعجزات المسيح إلى مستوى معجزات أسكولابيوس ، وإستبدل بالوحى لا هوتا طبيعيا متحرراً . وقبلت جامعة السوربون الرسالة ومنحت دى براد الدرجة . وأتهم الجانسنيون الذين كانوا يسيطرون على برلمان باريس الجامعة ، ورأحت الشائعات بأن لديدرو بداً فى الرسالة ، وسحبت الجامعة الدرجة وأمرت بالقاء القبض على الراهب . وهرب دى براد إلى بروسيا حيث آواه فولتير حتى خلف دى لأمترى قارئا لفرد ربك الأكبر .

وصعق الأمناء الحراس على الديانة التقليدية إذ رأوا أن دى براد هذا نفسه كان قد كتب مقالة « اليقين » فى المجلد الثانى من الموسوعة الذى صدر فى يناير ١٧٥٢ . وكان فى هذه المقالة أيضا بعض لمحات من ديدرو ، وتعالت الصيحات ضد الموسوعة حتى أن برتيه الذى أطرى هذا المجلد لما فيه من إسهامات كثيرة فى المعرفة ، وجه اللوم إلى المحررين على قطعة ذكر فيها أن معظم الناس ينظرون إلى الأدب بعين الأجلال والأكبار مثلما ينظرون إلى الدين « أى إلى شىء لا يستطيعون أن يعرفوه أو يمارسوه أو يحبوه » .

وقال اليسوعيون أن مثل هذا الكلام يجب لفت نظر المؤلفين والمحررين إليه حتى لا يعودوا يثبتون شيئا من هـذا القبيل فى الموسوعة مستقبلا(٣٦) . وفى ٣١ يناير أتهم كريستوف دى بومونت مطران باريس الموسوعة بأنها هجوم ماكر على العقيدة الدينيه : وفى ٧ فبراير صدر قرار من مجلس الدولة يحظر بيع الموسوعة أو نشرها . وفى نفس اليوم كتب مركيز دارجنسون فى صحيفته « صدر فى هذا الصباح قرار من المجلس لم يكن متوقعا يقضى بمنع تداول الموسوعة أو نشرها بسبب مزاعم مروعة : منها الكفر بالله والتمرد على سلطة الملك . وفساد الأخلاق . . . وقيل فى هذا الصدد أن مؤلفى الموسوعة ينبغى إعدامهم فى أقرب وقت(٣٧) .

ولم تصل الأمور إلى هذا الحد من السوء ، فلم يعتقل ديدرو ، ولكن الحكومة صادرت كل المادة التى كان قد جمعها ، وكتب فولتير من بوتدام يستحث ديدرو على نقل المشروع إلى برلين حيث يمكن النهوض به تحت حماية فردريك ، ولكن ديدرو وقف عاجزا بدون المادة التى صودرت . أما لى بريتون فكان يأمل أن تعدل الحكومة من قرار الحظر بعد سكون العاصفة ، وأيد مالشرب ومركيز دارجنسون ومدام دى بمبادور النداء الذى تقدم به لى بريتون إلى المجلس . وفى ربيع عام ١٧٥٢ وافق المجلس على نشر المجلدات الأخرى « بترخيص ضمنى » وأشارت دى بمبادور على دالمبير وديدرو باستئناف العمل « مع تحفظ ضرورى فيما يتعلق بما يمس الدين والسلطة الحاكمة » (٣٨) . ورغبة فى تهدئة خواطر رجال الدين وافق مالشرب على أن يراجع المجلدات التالية ثلاثة من رجال اللاهوت يختارهم الأسقف السابق بوير .

وصدر المجلدان الثالث والرابع فيما بين عامى ١٧٥٣ — ١٧٥٦ ، بعد خضوعهما لرقابة صارمة . وزاد الغضب من إنتشار الموسوعة ، كما أصبحت رمز الأفكار الحرة ، وزاد عدد المشتركين إلى ٣١٠٠ فى المجلد الثالث ، و ٤٢٠٠ فى المجلد الرابع

واجتاز دالمبير المحنة وقد اهتزت أعصابه بعض الشيء ومن ثم فانه ضمانا لسلامته الشخصية إشترط ألا يكون مسئولا بعد الآن إلا عن مقالات الرياضيات ، ومهما يكن من أمر فان ديدرو ظل يناضل الرقابة . وفى ١٢ أكتوبر ١٧٥٢ نشر ظاهريا فى برلين وباسم دى براد « مواصلة الدفاع عن الراهب دى براد » ، وتحدث فيه غاضباً ، مشيراً إلى أن أحد الأساقفة شجب مؤخرا رسالة السوربون : « لست أعلم شيئاً أكثر مجافاة للياقة وأشد خطرا على الدين من هذه الخطب الغامضة التى تهاجم العقل والتى يلقيها بعض رجال اللاهوت . وقد يقول المرء لدى سماعها أن الناس لايستطيعون الدخول فى المسيحية إلا كما يدخل قطيع من الحيوان إلى حظيرة ، وأن على المرء أن يتخلى عن الإدراك السليم وحصافة الرأى ليعتنق ديننا أو يستمسك به . وأكرر القول بأن إقرار هذه المبادىء معناه الهبوط بالإنسان إلى مستوى الحيوان ، ووضع الزيف والحقيقة على قدم المساواة » (٣٩) .

وتابع فى المجلد الثالث هجماته غير المباشرة على المسيحية ، مغلفة بالجهر بالايمان بالعقيدة القويمة. وأبرزت مقالته « التوقيت الزمنى المقدس » مرة أخرى تناقضات التوراة . وألقت ظلالا من الشك فى نصوص الأسفار المقدسة . وأكدت مقالته عن «الكلدانيين» على إنجازاتهم فى الفلك، ولكنها رثت لخضوعهم للكهنه «أنه لمما يزرى بالعقل ولا يشرفه تقييده فى الأغلال كما فعل الكلدانيون. ولد الإنسان ليفكر لنفسه » وعددت مقالته عن « الفوضى » الاعتراضات على فكرة الخلق وأسهبت — زعما أنها تدحض وتفند — القول فى حجج أبدية المادة . واشتملت على بعض النقاط الخلافية التى تثير الجدل مقالاته الممتازة فى التجارة والمنافسة وأسلوب التأليف والتركيب (فى الرسم) « والكوميديين » أى الممثلين ، وأوضح ديدرو أنه لم يكن رساماً ولا خبيرا باللوحات والرسوم ولكنه اضطر إلى الكتابة فى الموضوع لأن « الهاوى المتبجح » الذى عهد إليه بالكتابة عن أسلوب التأليف فى الرسم ، كان قد قدم موضوعاً تافهاً غير جدير بالنشر . وعبرت مقالة ديدرو عن بعض

فكار أبهجت فيما بعد « صالونانه » فكانت مقالته عن « الممثلين » إستمرار لحملة فولتير دفاعاً عن حقوقهم المدنية .

وحظي المجلد الثالث بثناء كبير خفف منه نقد اليسوعين وليلى فرينون فى مجلة « السنة الأدبية » ورفع المشتركون الجدد من قيمة العمل ومكانته : وبدأ ديكلوس ينهض بقسط من الجهد فى إخراج المجلد الرابع ، وفولتير وترجو يشاركان فى المجلد الخامس . وفى أثناء السنوات الأربع الأولى من المشروع كان فولتير مشغولا أو متورطاً فى ألمانيا — أما الآن فى عام ١٧٥٥ فقد استقر به المقام فى جنيف وأرسل منها المقالات عن « الأناقة » و « الفصاحة » و « الذكاء » وكلها تفيض أناقة وفصاحة وذكاء وكتب ديدرو نفسه للمجلد السادس مقالا تحت عنوان « الموسوعة » عده بعض العلماء والباحثين أحسن ماكتب فى المجموعة كلها . وكانت بالفعل من أطول المقالات حيث بلغ عدد كلماتها ٣٤ ألف كلمة ، تحدث فيه عن الصعوبات التى واجهت العمل لامن حيث القوى التى كانت تهدف إلى هدم المشروع فحسب بل كذلك من حيث ضآلة الاعتمادات المالية غير الكافية لدفع أجور المؤلفين ونفقات الطبع ، والعلل الطبيعية التى إنتابت الكتاب حيث أقعدهم المرض أو ضيق الوقت . وأقر العيوب الكثيرة التى صابت المجلدات الخمسة الأولى التى كانت قد أخرجت فى عجلة وخوف ، ووعد بالعمل على ملافاتها ، وفى شيء من الانفعال كتب قانون الايمان الخاص به : إن الغاية القصوى من أية موسوعة هو جمع المعرفة المتناثرة هنا وهناك على الأرض ، وشرحها للمعاصرين ونقلها إلى الأعقاب ، والغرض من ذلك هو ألا تكون جهود القرون الماضية غير ذات نفع للاجيال القادمة وأن يكون خلفاؤنا وقد أصبحوا أكثر ثقافة وأغزر علماً ، فى نفس الوقت أسعد وأكثر تمسكا بالفضيلة ، وألا نفارق الحياة دون أن نحظى بثناء الجنس البشرى وتقديره .

ورأى ديدرو فى الموسوعة لطمة للاعقاب ، ووثق أنهم سيدافعون عنه ويبرئونه ، وتصور ثورة عارمة عطلت مؤقتاً تقدم العلوم وعمل فنون

الصناعة ، وغمرت من جديد بالظلام جزءا من العالم . وراوده أكبر الأمل فى « إعتراف مثل هذا الجيل بفضل أولئك الرجال الذين أوجسو خيفة من هذا الخراب وتوقعوه فجمعوا شتات المعرفة التى تراكمت عبر القرون وحفظوها فى حرز أمين » وقال « إن الأعقاب بالنسبة للفيلسوف هى بمثابة الدار الآخرة بالنسبة لرجل الدين (٤٠) .

وخلق المجلد السابع الذى ظهر فى خريف ١٧٥٧ أزمة أخرى أسوأ مما سبقها . وذلك أن كسنى وترجوكتبا أبحاثاً مستفيضة مشهورة فى شرح سياسة عدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية ، (مذهب الفيزيوقراطيين فى حرية التجارة والصناعة — ظهر فى فرنسا فى القرن الثامن عشر) كما أن لويس دى جوكور ، الذى كثيرا ما أسهم الآن فى الكتابة فى الموسوعة ، كتب مقالة موجزة مهينة تحت عنوان « فرنسا » بلغت كلماتها تسعمائة كلمة ولم ترو معظمها شيئاً من تاريخ فرنسا ، بل عددت شوائبها وأخطائها : الافراط الخطير فى عدم المساواة فى توزيع الثروة ، فقر الفلاحين ، وتضخم باريس وتناقص السكان فى الأقاليم . وفى مقال عن « الحكومة » كتب جوكور « أن الخير كل الخير للشعب فى حريته . . . وبدون الحرية تنتفى السعادة فى الدول » وفى هذا المجلد كتب فولتير مقالة عن الفسوق والزنى ، وتفاخر بأنها علمية ، ولكن مقالة « المقاومة » — على الأقل المقالة التى أثارت أشد مقاومة — هى المقالة عن جنيف التى التقينا بها فى محيطها السويسرى . ونسى دالمبير ما أخذ به نفسه من حيطة وحذر وتصميمه على الاقتصار على الرياضات وأثار على نفسه سخط جنيف وباريس كلتيهما حين صور رجال الدين الكلفنيين بأنهم يرفضون ألوهية المسيح .

ورأى جريم على الغدر أن هذه المقالة زلة فظيعة تعوزها اللباقة ، وقال إنها تسبب اهتياجاً ويلبلة . واستنكر أحد اليسوعيين المجلد فى عظة ألقاها أمام الملك فى فرساى . وكتب دالمبيز إلى فولتير يقول « إنهم يجزمون بأنى أمتدح قساوسة جنيف فى أسلوب يضر بالكنيسة الكاثوليكية » (٤١) . وفى ٥ يناير

١٧٥٧ بذلت محاولة لقتل الملك . فكان رد الملك عليها أنه أحيا قانوناً قديماً يعاقب بالإعدام مؤلفى وناشرى وبائعى الكتب التى تهاجم الديانة أو تزعج الدولة ، وزج بعدد من الكتاب فى السجن ، ولم يعدم أحد ولكن دالمبير المرهف الحس تولاه الفزع بشكل واضح ، وقطع علاقته بالموسوعة نفوراً من الهياج والصخب (١ يناير ١٧٥٨) . وفقد بعض الوقت قدرته على رؤية الأشياء فى أوضاعها الصحيحة ، وأتهم مدام بمبادور بمحابات « أعداء الفلاسفة » وتأييدهم ، وطلب إلى مالشرب أن يكبح جماح زعيمهم فريرون . وألح عليه فولتير فى عدم الاستقالة ، فأجاب دالمبير فى ٢٠ يناير « أنت لاتدرك الوضع الذى نحن عليه ، وصورة غضب السلطات علينا . . . أنا أشك فى مواصلة ديدرو العمل بدونى . . . فإذا فعل هذا فإنه يمهد السبيل لسلسلة من المحاكمات والبلايا لمدة عشر سنوات »[٤٣] وكان رعبه قد إزداد فى السبعة أو الثمانية أيام التالية « إذا كان الأعداء ينشرون مثل هذه الأشياء اليوم باذن صريح من قبل هذه المراجع المسئولة ، فلن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن هذا يعنى إثارة الهياج ضد المجلد السابع ، وألقاءنا فى أتون المحرقة بالنسبة للمجلد الثامن »[٤٣] وأذعن فولتير لرأى دالمبير ، ونصح ديدرو بالتخلى عن الموسوعة ، حيث أنه إذا استمر العمل فيها بأية حال ، فستكون خاضعة لرقابة تقضى على قيمة العمل باعتباره أداة للحد من سيطرة الكنيسة على الأذهان فى فرنسا[٤٤] وأبى ترجو ومارمونتيل وديكلوس وموريللى أن يكتبو أية مقالات أخرى ، وفترت همة ديدرو نفسه لفترة من الزمن ، وكتب يقول « لايكاد يمر يوم إلا وتحدثنى نفسى بالذهاب إلى مسقط رأسى فى شمبانيا لأعيش منزوياً فى هدوء »[٤٥] ولكنه لن يلقى سلاحه ولن يستسلم . وفى فبراير ١٧٥٨ كتب إلى فولتير « أن التخلى عن العمل معناه أن ننقض المهد ونتكص على أعقابنا ونفعل ما يريده منا هؤلاء الأوغاد الذين يضطهدوننا . آه لو علمت كم إبتهجوا وفرحوا عندما علموا باعتزال دالمبير العمل ، وكم من مناورات قاموا بها للحيلولة دون رجوعه إليه !

وفى إجتماع أساقفة فرنسا ١٧٥٨ قدموا إلى الملك منحة اختبارية كبيرة بشكل غير عادى ، وتقدموا إلية برجاء إلغاء « الترخيص الضمنى » الذى يجيز نشر الموسوعة فى فرنسا . وفى ١٧٦٨ شرع أبراهام دى شوميكس فى إصدار سلسلة من النشرات تحت عنوان « أحكام شرعية ضد الموسوعة » وأثار نشر كتاب هلفشيوس « أسس الروح » (٢٧ يوليو ١٧٥٨) مزيدا من الاحتجاجات ، وتورطت الموسوعة فى هذه العاصفة حيث إنتشرت الشائعات القوية بأن ديدرو تربطه بهلفشيوس علاقات وثيقة . وزاد الطين بلة أن روسو الذى كان يكتب للموسوعة مقالات فى الموسيقى ، رفض أن يسهم فى التحرير الآن . وروجت رسالته إلى دالمبيز عن العروض المسرحية نبأ إنشقاقه على الفلاسفة . وبدا أن معسكر الموسوعيين قد تمزق . وفى ٢٣ يناير ١٧٥٩ حذر وكيل الملك أميردى فليرى برلمان باريس من أن هناك مشروعاً أعد وجماعة تكونت لنشر المذهب المادى ، والقضاء على الدين ونشر روح الاستقلال ، والعمل على إفساد الأخلاق(٤٦) وأخيراً فى ٨ مارس ، صدر من مجلس الدولة أمر بتحريم الموسوعه تحريماً تاماً ، فلايطبع أى مجلد جديد ، ويمنع بيع أو تداول المجلدات الموجودة . وأوضح القرار أن الفوائد التى تجنى من هذا العمل من حيث تقدم الفنون والعلوم لايمكن بحال من الأحوال أن تعوض عن الأضرار البالغة المتعذر إصلاحها التى تنشأ بالنسبة للعقيدة الدينية والأخلاق(٤٧) .

ولم يتهدد هذا المرسوم سلامة أشخاص الفلاسفة فحسب ، بل تهدد كذلك قدرة الناشرين على الوفاء بديونهم . وكان كثير من المشتركين قد دفعوا قيمة إشتراكهم فى المجلدات التالية ، فكيف يتيسر رد ما دفع مقدماً ؟ فمعظم هذه الأموال أنفق على المجلدات السبعة الأولى ، وعلى الأعداد لاخراج المجلد الثامن الذى كان معدا للتوزيع حيث صدر المرسوم الملكى . وحرض ديدرو الناشرين على ألا يستسلموا ، لعل هذا المرسوم يجرى أيضاً تعديله أو العدول عنه فى الوقت المناسب ، وإلا طبعت المجلدات الباقية فى الخارج .

وبناء على طلب الناشرين لزم ديدرو داره وواصل العمل فى المجلد التاسع . وفى الوقت نفسه بذل مالشرب وآخرون غيره أقصى الجهد فى تسكين غضب الحكومة .

وهنا — فى صيف ١٧٥٩ ظهرت فى باريس نشرة سرية غفل الاسم ، تحت عنوان مذكرة إلى « فرنسوا شوميكس » وهى قطعة مملة عنيفة فى موقف واحد ، تهاجم فى أقذع الإهانة والسباب ، لا الحكومة والبرلمان واليسوعيين والجانسنيين وحدهم ، بل هاجمت المسيح وأمه كذلك . وقال ديدرو « إن العمل منسوب إلينا بما يشبه الاجماع » ، [٤٨] وقصد إلى مالشرب وإلى مدير الشرطة وإلى المحامى العام للبرلمان وأقسم أنه لاعلاقة له بتفجر الإلحاد فى الشوارع على هذا النحو ، وصدقه أصدقاؤه ، ولكنهم نصحوه بمغادرة باريس فأبى الهروب ، محتجاً فإن فى الهروب إعترافا بالذنب . وحذره ما لشرب من أن الشرطة ستهاجم منزله وتصادر أوراقه ، ومن ثم ينبغى إخفاؤها . فتساءل الثائر الحائر المنزعج « ولكن أين أخفيها ؟ » وكيف يتسنى له فى ساعات قلائل أن يوفق إلى مكان يخفى فيه كل هذه المادة التى جمعها ؟ فقال مالشرب « أرسلها إلى أنا ، لن يأتى أحد ليفتش عنها هنا[٤٩] ». وفى الوقت نفسه عثر رجال الشرطة على طابعى النشرة المخزية ، وانتهوا إلى أن ديدرو لم يكن له صلة بها ، ولم يصدر أمر بمصادرة أوراقه ، وتنفس الصعداء ولكنه أشرف على الإصابة بانهيار عصبى ، وصحبه صديقه الغنى دى هولباخ لقضاء عطلة فى بعض الأماكن القريبة من باريس . وكتب ديدرو « حملت معى إلى كل مكان قصدناه خطى مضطربة متعثرة ونفساً مكتئبة »[٥٠] .

وعاد ديدرو إلى باريس ، ووقع مع الناشرين عقداً جديداً لإعداد تسعة مجلدات إضافية من الموسوعة لقاء مبلغ ٢٥ ألف جنيه . وعرض دالمبير أن يستأنف مسئوليته عن مقالات الرياضيات ، ووجه ديدرو إليه اللوم على تخليه عن العمل فى وقت المحنة حين حمل عليه العدو ، ولكنه قبل إسهامه

فى الموسوعة ، وكذلك إنضم إليهم فولتير . وكان ديدرو يأمل أن يكمل المجلد السابع عشر والأخير فى ١٧٦٠ . ولكنه فى سبتمبر ١٧٦١ . كتب يقول « إنتهت المراجعة المزعجة ، حيث قضيت فيها خمسة وعشرين يوماً متصلة بمعدل عشر ساعات فى اليوم »[٥١] وظل لعشرة أيام أخر حبيساً فى داره لمراجعة اللوحات والرسوم . وتم طبع المجلدات من الثامن إلى السابع عشر فى تعاقب سريع فى باريس ، ولكنها موسومة بعلامة تشعر بأنها نشرت فى نيوشاتل ، وتغاضى سارتين مدير عام الشرطة الجديد عن هذه الخدعة أو التضليل [٥٢] ومهد الطريق لهذا طرد اليسوعيين من باريس ١٧٦٢(*) وفى سبتمبر ١٧٦٢ عرضت كثرين قيصرة روسيا استكمال الموسوعة تحت حماية الحكومة فى سان بطرسبرج ، وجاء مثل هذا العرض من فردريك الأكبر عن طريق فولتير . وربما استحثت هذه الاقتراحات الرجال الرسميين فى فرنسا على إجازة الطبع فى باريس . وظهر المجلد الأخير من النصوص فى ١٧٦٥ ، وأضيف أحد عشر مجلدا للوحات والرسوم فيما بين عامى ١٧٦٥ و ١٧٧٢ وصدر ملحق من خمسة مجلدات ، مجلدان لفهرس الموسوعة فيما بين عامى ١٧٧٦ — ١٧٨٠ وطلب إلى ديدرو تحريرها ولكنه كان منهوكا مرهقاً فرفض ، فان أهم مشروع نشر فى هذا القرن إستنزف قواه ، ولكنه خلد ذكره بالقدر الذى تسمح به تقلبات المدنية .

(*) إن القصة الطريفة التى تقول بأن مدام بمبادور أقنعت لويس الخامس عشر بالتخلى عن معارضته فى نشر المجلدات من الثامن إلى السابع عشر باطلاعه على مقالة « البارود » قصة مرفوضة الآن بصفة عامة على أنها من نسج خيال فولتير [٥٣] والقصة مذكورة فى المجلد الثامن والأربعين من طبعة بيشو لأعمال فولتير ، وفى كتاب جونكور « مدام دى بمبادور » ص ١٤٧ .

٤ — الموسوعة نفسها

إن كل محتويات الموسوعة تقريبا نسختها الثورة الفكرية التى ساعدت على إذكاء نارها ، ولكنها تسترعى إنتباهنا لمجرد أنها أحداث فى تاريخ الأفكار ، وأسلحة استخدمها الفلاسفة فى صراعهم مع المسيحية الوحيدة التى عرفوها ، وقل إن كان الهجوم مباشرا كما رأينا وكانت مقالتا « المسيح والمسيحية » وكلتاهما بقلم ديدرو ، فوبختين تقليديتين فى جوهرهما . وامتدح المقالة الثانية أحد الرهبان الإيطاليين . وكتب نفر من الكهنة مقالات للموسوعة ، ومن ذلك أن الراهب يفون كتب مقالة بعنوان « الملحدون » ولم تؤيد الموسوعة الإلحاد بل الربوبية . ومهما يكن من أمر فإن المراجع المفترضة كانت فى بعض الأحيان مضللة ، ملحقة بمقالة تقليدية رشيدة . وكثيرا ما أشارت إلى مقالات أخرى تثير الشكوك . من ذلك أن المقالة المثالية عن « الله » أشارت إلى مقالة « البرهان » التى أوردت قواعد للبرهنة فيها تشويه للمعجزات والأساطير . وفى بعض الأحيان شرحت أقل العناصر إعتدالا ومعقولية فى العقيدة المسيحية فى قبول ظاهر . ولكن بطريقة تستدعى الإرتياب والجدل . ورفضت المبادىء الصينية أو الإسلامية المماثلة للنظريات المسيحية باعتبارها غير عقلانية . وارتفعت الصيحات بأن مقالة « الكهنة » غير ودية . ويحتمل أن دى هولباخ هو الذى دبجها . لأن الفلاسفة كانوا يمقتون رجال الدين بوصفهم أعداء للفكر الحر ومشجعين على الاضطهاد وزعم المؤلف أنه إنما كان يكتب عن رجال الدين الوثنيين : « إن الخرافة ضاعفت من مراسم وطقوس الشيع المختلفة . ومن هنا شكل القائمون عليها طائفة مستقلة . واعتقد الناس أن هؤلاء الأشخاص مخلصون للمعبود كل الإخلاص . ومن هنا كان للكهنة نصيب فى إجلال الناس لله . وبدت المناصب العادية التى يشغلونها أدنى مستوى منهم ، واعتقد العامة أنهم مرغمون على أن يقدموا لهؤلاء الكهنة ما بعولهم ... وكأنهم ودائع ينفذون وصية الله ، ووسطاء بين الآلهة والناس .

وعمد الكهنة . لكى يثبتوا سلطانهم ويؤكدوا سيطرتهم ، إلى تصوير الآلهة بأنهم قساة حقودون محبون للإنتقام لا يستشعرون الرحمة . وأدخلوا

لمراسم والطقوس والشعائر والأسرار التى يمكن أن تبعث فظاعتها فى نفوس الناس الإكتئاب الرهيب الملائم كل الملاءمة لدنيا التعصب . ثم تدفق الدم البشرى الغزير فوق المذابح . وظن الناس ، وقد ملأهم الخوف بالجبن وأعمتهم الخرافة . أنه لن يكون أى ثمن يدفعونه غاليا فى سبيل الحظوة برضا الأرباب . وأسلمت الأمهات أطفالهن الصغار دون أن يذرفن دمعة واحدة ، إلى النيران الملتهبة . وسقط آلاف الضحايا تحت سكين القربان المقدس ... وكان من الميسور على الرجال الذين كانوا موضع الإجلال والإحترام إلى هذا الحد . أن يبقوا طويلا داخل حدود الخضوع الضرورى للنظام الإجتماعى . فإن الكهنة الذين أسكرتهم السلطة كثيرا ما نازعوا الملوك حقوقهم . وأمسك التعصب والخرافة بالسيف مصلتا على رؤوس الملوك واهتزت العروش حين رغب الملوك فى كبح جماح أو معاقبة الرجال المقدسين الذين كانت مصالحهم متشابكة مع مصالح الآلهة ... كان الحد من سلطانهم يعنى تقويض أركان الديانة . »[٥٤] .

وبصفة عامة اتخذت الحرب ضد العقيدة القديمة شكل الثناء على المعتقدات الجديدة فى العلوم والفلسفة ومناهجهما . وكان الفلاسفة يحلمون باحلال العلوم محل الدين والفلاسفة محل الكهنة على الأقل بين الطبقات المتعلمة . وحظيت العلوم بتفسيرات وشروح مسهبة ، مثال ذلك أن ستة وخمسين عمودا خصصت «للتشريح» ، وتحت بند « الجيولوجيا » كتبت مقالات مطولة عن المياه المعدنية والمعادن والطبقات وأنهار الجليد والأحافير والمناجم والزلازل والبراكين والأحجار الكريمة . وكان لزاما أن توضع الفلسفة فى النظرة الجديدة إليها على أساس من العلوم تماما . وينبغى ألا تبنى « نظما » ويجب أن تتجنب الميتافيزيقا ويجب ألا تتحدث بلغة الأساقفة عن منشأ العالم ومصيره ، وشنت مقالة « المدرسة » هجوما مباشرا على الفلاسفة السكولاسيين (المدرسيين) على إعتبار أنهم تخلوا عن البحث عن المعرفة ، واستسلموا للاهوت . وضيعوا أنفسهم ، وهم آمنون فى المنطق الواهى مثل خيوط العنكبوت ، وسط غيوم الميتافيزيقا .

ودبج ديدرو سلسلة من المقالات الممتازة فى تاريخ الفلسفة ، استندت

كثيرا على كتاب جوهان جاكوب بروكر « تاريخ النقد الفلسفى » (١٧٤٢ — ١٧٤٤) ولكنها كشفت عن بحث أصيل فى الفكر الفرنسى ، وشرحت المقالات التى كتبت عن مدرسة إلياوأبيقور المذهب المادى . وأفرطت بعض المقالات فى إطراء برونو وهوبز . وباتت الفلسفة عند ديدرو ديانة . « والعقل للفليسوف هو بمثابة البركة والنعمة الإلهية للمسيح » (٥٥) . وصاح « فلنسارع لنجعل الفلسفة شعبيه » (٥٦) . وفى مقالة « الموسوعة » كتب كما يكتب الرسل أو الحواريون « اليوم حين تتقدم الفلسفة إلى الأمام بخطى جبارة ، وتخضع لسلطانها كل الأشياء التى تهمها ، وحين يكون صوتها عاليا مدويا ، وتشرع فى طرح نير السلطة والتقاليد وتستمسك بقوانين العقل ... « وهنا كانت العقيدة الجريئة الجديدة مع ثقة فتية شابة قليلا ما توجد ثانية . وربما كان يفكر فى حاميته الإمبراطورية فى روسيا ، فأضاف مثل أفلاطون » وحدوا بين حاكم (كترين الثانية) وبين فليسوف من هذا الطراز (ديدرو) ومن ثم تجدون ملكا بلغ درجة الكمال (٥٧) .

وإذا حل مثل هذا الفليسوف محل كاهن اعتراف مرشد وموجه للملك ، فلابد أن ينصحه أول ما ينصح باطلاق الحرية ، وبخاصة حرية الكلام والصحافة « إن أحداً لم يتلق من الطبيعة حق التحكم فى الآخرين » (٥٨) وفى هذا تعريض شديد بحقوق الملك الألهية أما بالنسبة للثورة : « إن السلطة التى يتم الإستيلاء عليها عن طريق العنف ليست إلا اغتصابا ، لا تدوم إلا بقدر تفوق قوة من سيطر على قوة من أذعنوا له . فاذا توافر لهؤلاء الآخرين قسط كبير من القوة وتخلصوا من نير من تسلط عليهم من قبل فإنهم يفعلون بحكم الحق والعدل مثل ما فعل هذا الذى كان قد تحكم فيهم وفرض عليهم سلطانه من قبل . إن نفس القانون الذى فرض السيادة هو الذى يحطمها ويبطلها ، وهو قانون الأقوى ، ... ومن ثم فإن السلطة الحقيقية الشرعية لها بالضرورة حدود وقيود ... إن الأمير (الملك) يتلقى من رعاياه السيادة التى يمارسها عليهم . وهذه السيادة محدودة بقوانين الطبيعة وقوانين الدولة ... إن الدولة لا تتبع الأمير ، بل إن الأمير هو الذى يتبع الدولة وينتسب إليها(٥٩).

ولم تكن الموسوعة إشتراكية ولا ديموقراطية ، بل إنها قبلت الملكية ،

ونبذت نظرية المساواة التى شرحها روسو بقوة ١٧٥٥ . ودافعت مقالة جوكور « المساواة الطبيعية » عن المساواة أمام القانون ، ولكنها استطردت تقول « إنى أدرك تمام الإدراك ضرورة تباين الأحوال والدرجات والمقامات والطبقات والإمتيازات والتبعية التى يجب أن تسود فى كل الحكومات » (٦٠) واعتبر ديدرو آنذاك أن الملكية الخاصة أساس لا غنى عنه للمدنية (٦١) على أن مقالة « الإنسان » على أية حال كانت لها وقفة مع الشيوعية : « إن الربح الصافى للمجتمع إذا وزع توزيعا عادلا بالتساوى قد يكون مفضلا على ربح أكبر إذا لم يوزع على قدم المساواة ، ومن ثم تكون نتيجته تقسيم الشعب إلى طبقات » . وعند التحدث عن الملاجىء قيل « قد يكون السعى إلى منع الفقر والبؤس ذا قيمة أكبر من مضاعفة الملاجىء لإيواء البؤساء » (٦٢) .

إن الملك الفليسوف قد يفحص من وقت لآخر شئون الإقطاع ويلغى الإمتيازات الإقطاعية التى لم تعد تتكافأ مع خدمات السادة الإقطاعيين للفلاحين أو للدولة (٦٣) . وقد يجد بديلا إنسانيا للعمل الإجبارى ، أى نظام السخرة ، ويحرم تجارة الرقيق ، ويضع حداً ، كلما اتسع سلطانه ، للحروب بين الأسرات المتنافسة والصراعات التى يملؤها الجشع ، ويسعى إلى تطهير المحاكم من الفساد ، ويوقف بيع الوظائف ، ويخفف من وطأة قانون العقوبات وعلى الأقل يضع حداً للتعذيب القضائى . وعليه ، بدلا من العمل على استدامة الخرافة وانتشارها ، أن يبذل أقصى جهوده فى أن يدفع إلى الأمام هذا العصر الذهبى الذى يمكن أن يتحالف فيه فن الحكم وسياسة الدولة مع العلم فى حرب متصلة ضد الجهل والمرض والفقر .

وكانت الأفكار الإقتصادية فى الموسوعة فى جملتها هى أفكار الطبقة الوسطى التى ينتمى إليها معظم الفلاسفة . وهى على الأغلب آراء الفيزيوقراطيين التى سيطرت بزعامة كنى وميرابو الأب على النظرية الإقتصادية فى فرنسا فى أواسط القرن الثامن عشر . فقد ساد الإعتقاد بأن حرية العمل والمشروعات — ومن ثم التجارة الحرة والمنافسة الحرة — أمر حيوى بالنسبة للأحرار من الناس . ولذلك كانت النقابات وهى عوائق لهذه كلها ، غير مرغوب فيها ولا يتقبلها أحد . وقدر لهذه الأفكار أن تبرز على مسرح التاريخ فى وزارة

ترجو ١٧٧٤ ونبهت الموسوعة الأذهان إلى التكنولوجيا الصناعية وأولتها عناية متحمسة ، وهى التكنولوجيا التى بدات تغير وجه الإقتصاد فى إنجلترا وفرنسا . واعتقد ديدرو أن الفنون الميكانيكية يجب إكبارها والرفع من شأنها باعتبارها تطبيقاً للعلوم ، والتطبيق بالتأكيد ذو قيمة كبيرة مثل النظرية تماما . « ما هذا الحمق فى قراراتنا وتقديراتنا ! إننا نحض الناس على أن يشغلوا أنفسهم بما يفيد وينفع ، ثم نحتقر الرجال النافعين » (٦٤) . وكان يأمل فى أن تكون الموسوعة مستودعا جامعا مانعا للتكنولوجيا حتى إذا وقعت بالفنون الميكانيكية كارثة دمرتها أمكن بناء هذه الفنون من جديد بفضل مجموعة باقية من مجلدات الموسوعة . وكتب هو نفسه مقالات مطولة بذل فيها جهداً كبيراً عن الصلب والزراعة والإبر والبرونز وآلة النقب والقمصان والجوارب والأحذية والخبز . وأعجب بعبقرية المخترعين ومهارة الحرفيين . وقصد بنفسه أو أرسل مساعديه إلى المزارع والحوانيت والمصانع لدراسة العمليات والمنتجات الجديدة ، وأشرف على حفر الرسوم والنقوش التى قارب عددها ألفا والتى جعلت من مجلدات اللوحات الأحد عشر إحدى العجائب من نوعها فى ذلك العصر . وكانت الحكومة فخورة بأن يشمل هذه المجلدات الأحد عشر الإذن الملكى بطبعها ونشرها . وقد ضمت خمساً وخمسين لوحة عن صناعة النسيج وإحدى عشرة لوحة عن سك العملة وعشرا عن الصناعات الحربية ، وخمسا عن البارود ، وثلاثا عن صناعة الدبابيس . وكانت هذه اللوحات الثلاث الأخيرة مصدراً لمقالة آدم سميث الشهيرة عن توزيع العمل إلى « ١٨ عملية متميزة » فى إنتاج الدبوس (٦٥) . قال ديدرو : « من أجل الحصول على هذه المعلومات كنا نقصد إلى أقدر الحرفيين فى باريس وفى سائر أنحاء المملكة ، وحرصنا على أن نوجه إليهم الأسئلة ونكتب ما يملون علينا . ونحصل منهم على المصطلحات المستخدمة فى حرفهم . وفى مقابلات طويلة كثيرة مع مجموعة واحدة من العمال كنا نستكمل ما قد يكون الآخرون قد شرحوه بشكل ناقص أو غامض أو أحيانا غير دقيق . وأرسلنا إلى الحوانيت حفارين ورسامين رسموا الآلات والأدوات دون أن يحذفوا شيئا يمكن أن يجعلها واضحة تمام الوضوح أمام الأعين . » (٦٦)

وفى ١٧٧٣ ، عندما طلب سلطان تركيا إلى بارون دى توت أن يصنع المدافع لحصون الدردنيل استخدم البارون مقالة « المدافع » فى الموسوعة مرشدا دائما يسترشد بما جاء فيها . (٦٧)

وبعد أن فرغ ديدرو من إعداد النص كاملا ، أصيب بنكسة زلزلت كيانه وحطمت روحه ، ذلك أنه وهو يراجع إحدى المقالات اكتشف أن أجزاء كثيرة من أوراق التجارب التى كان قد صححها واعتمدها حذفت أو سقطت عند الطبع . وأظهرت مراجعة بعض المقالات الأخرى أن حذفا مماثلا جرى فى المجلدات من التاسع إلى السابع عشر ، وجرى الحذف والتعديل عادة فى أجزاء ربما أثارت مرة أخرى رجال الدين أو البرلمان . وجرى الحذف دون اعتبار للمنطق أو السياق فى الجزء الباقى من المقالة . واعترف لى بربتون بأنه عمد إلى هذه العملية الجراحية (الحذف) لينقذ الموسوعة مما قد تتعرض له من محن ، وينقذ نفسه من الإفلاس . وروى جريم نتيجة هذا العمل « لقد جن جنون ديدرو عند اكتشاف هذا التصرف ، ولن يغيب عن ذاكرتى مطلقاً هذا الذى حدث له وظل لعدة سنين يصرخ فى وجه لى بريتون « لقد كنت تخدعنى بشكل مخز ودنىء .... وضيعت جهود عشرين من أفاضل الرجال ، الذين خصصوا كل وقتهم وقدراتهم ومواهبهم ونشاطهم حبا فى الحق وجريا وراء الحقيقة ، يحدوهم مجرد الأمل فى وصول أرائهم إلى جمهور الناس ، ولا يريدون منها إلا أيسر الجزاء بثمن غال ... ولسوف يذكرونك منذ الآن رجلا اقترف جريمة الخيانة ، وتصرف تصرفا وقحا كريها ، مما لا يقارن به أى شىء حدث فى هذا العالم » (٦٨) . ولم يغتفر ديدرو لبريتون هذه الزلة قط » .

إننا لو ألقينا نظرة فاحصة إلى هذا العمل ، سواء من حيث تاريخه أو محتوياته : لأدركنا أنه المشروع البارز الرائع فى عصر الإستنارة فى فرنسا ، ومنذ كان ديدرو فيه رئيسا لا غنى عنه ، كانت مكانته تجىء بعد فولتير وروسو فى الصورة العامة الشاملة للحياة الفكرية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر .. وكانت مثابرته على تحرير الموسوعة عملية متشعبة الأطراف مضنية . إنه أثبت المراجع المتعارضة وصحح الأخطاء وقرأ تجارب الطبع ، وطاف

بأرجاء باريس يبحث عن الكتاب ويستحثهم . ودبج بقلمه مئات المقالات في حالة عدم العثور على الكتاب أو عجزهم عن الكتابة . وكان المرجع الأخير إذا قصر الآخرون ، ومن ثم نجده يكتب فى الفلسفة والفن والمسيحية ، والأصلة العاصرة (نوع من الحيات الضخمة الماحقة) والجمال وأوراق اللعب ومصانع الجعة والخبز المقدس . وسبقت مقالته عن « التعصب أو عدم التسامح » رسالة فولتير فى نفس الموضوع ، وربما أوحت ببعض الأفكار الواردة فيها . وزخر الكثير من مقالاته بالأخطاء ، وكان بعضها عدائيا غير منصف بشكل مشوش ، مثال ذلك مقالته عن اليسوعيين ، ولكنه كان فى عجلة من الأمر ، على حذر يستعد للنضال ، كما كانوا يطاردونه ، وكان يحارب بكل سلاح فى متناول يده .

أما وقد خفت حدة المعركة ، فنى مقدورنا أن نتبين مواطن الضعف فى الموسوعة . ففيها ألف خطأ فى إيراد الحقائق ، وفيها تكرارات طائشة غير مدروسة وحذف فاضح ، وكان فيها انتحالات جوهرية ، كما أوضح الباحثون اليسوعون «وكانت بعض المقالات» لوحة من المسروقات أو الإقتباسات[٦٩] . وفى ثلاثة أعداد من صحيفة تريفو أورد برتييه ، استناد إلى مراجع دقيقة ومقتبسات متطابقة أكثر من مائة من الانتحالات فى المجلد الأول وكان معظم هذه المسروقات مختصرا غير ذى أهمية ، ولكن بعضها إمتد إلى ثلاثة أو أربعة أعمدة منقولة بالحرف الواحد .

وكان فى الموسوعة شوائب فكرية خطيرة . ومن ذلك أنه كان لدى المؤلفين فكرة بالغة السذاجة عن الطبيعة البشرية ، وتقدير متفائل إلى حد بعيد لأمانة العقل وإدراك غامض غاية الغموض لضعف هذا العقل وهشاشته أو سهولة إنقياده ، ونظرة عامة متفائلة أكثر مما ينبغى إلى كيفية استخدام الناس للمعرفة التى يزودهم بها العلم . إن الفلاسفة بصفة عامة وديدرو بصفة خاصة ، كانت تعوزهم الحاسة التاريخية . إنهم قليلا ما توقفوا ليبحثوا كيف نشأت ونهضت تلك المعتقدات التى حاربوها ، وأية حاجات بشرية ، لا إبتداعات كهنوتية انتجتها وهيأت لها الدوام . وعميت أبصارهم تماما عن إسهام الديانة الضخم فى النظام الإجتماعى وفى الأخلاق وفى الموسيقى والفنون ، وفى

تخفيف الفقر والشقاء . إن تحاماهم على الدين شديداً إلى حد أنهم لا يستطيعون مطلقاً إدعاء النزاهة أو عدم التحيز الذى ينبغى أن نعتبره الآن عنصراً أساسيا فى الموسوعة الجيدة . وعلى الرغم من أن بعض اليسوعيين مثل برتييه ، كانوا فى الغالب منصفين فى نقدهم للموسوعة ، فإن معظم نقادنا كانوا متحيزين مثل الفلاسفة .

وأحس ديدرو إحساسا قويا بالأخطاء الحقيقية الفعلية فى الموسوعة فكتب فى ١٧٥٥ : إن الطبعة الأولى من موسوعة لا يمكن إلا أن تكون جمعا وتصنيفا مشوهين ناقصين ، [٧٠] وتوقع أن تحل محلها وشيكا طبعة أخرى مصححة . وحتى مع هذا شق هذا الإنتاج الضخم طريقه إلى الأوساط الفكرية فى الحارة . وأعيد طبع المجلدات الثمانية والعشرين ثلاث مرات فى سويسرا ، ومرتين فى إيطاليا ، ومرة فى ألمانيا ، ومرة فى روسيا ، وعادت الطبعات المنتحلة إلى فرنسا لتنشر تأثير الأفكار المهربة . وبلغ عدد الطبعات ثلاثا وأربعين طبعة على مدى خمسة وعشرين عاما — وهو رقم قياسى لمثل هذه المجموعة الغالية الثمن . وكان أفراد الأسرة يجتمعون فى المساء ليقرأوا الموسوعة وتألفت مجموعات متلهفة على دراستها . وأشار توماس جفرسون على جيمس ماديون بشرائها .

والآن وقد ظهر إنجيل العقل ضد الأساطير ، وإنجيل المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية ، وإنجيل التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل أو التفكير القديم فى الموت ، فكأنما هبت هذه كلها على أوربا مثل ريح محملة بلقاح جديد ، تبدد كل التقاليد وتنير الفكر وتوقظه ، وتدعو آخر الأمر إلى الثورة .

إن الموسوعة كانت ثورة قبل « الثورة الفرنسية »

* * *